العذاب

بقلم

فاروق خورشيد

أطبق الظلام أجفانه على قصر (القيطلان) فى جزيرة (السندال) ولفه بردائه الحالك ، وأخذت رسل الليل القاتمة تتسلل خلال الاقبية والسراديب حتى عم الظلام تماما ذلك الجحر النائى الذى يثوى فى باطن الارض حيث شدت السلاسل الحديدية الرهيبة جسد (معروف) المجهد الممزق فوق كومة من القش الملوث ، المصبوغ بلون الدماء القاتمة المتجمدة ، تتصاعد منه روائح حادة من عفن وصديد ...

وما كان « معروف » يحس بمجىء الظلام ، وما كان يحس أيضا بانحساره .. فأيامه ظلام دائم منذ رقد فى هذا القبر الرهيب تنوشه سياط مجنونة فى أوقات محددة منتظمة وكأنما تقسم ساعات اليوم فى نظام رتيب .. وحدها هذه السياط تمزق جلده وتمس عظمه وتقع فوق جروحه لتفتحها من جديد ، هى التى تذكره ان الوقت يمضى وان الساعات تفوت .. وحدها هذه الصيحات المجنونة التى تخرج من حنجرة غليظة هادرة ترافق وقع السياط ، وتردد مع الضربات المتتاليات :

ـ أين عرنوس ... أين عرنوس .

وحدها هى التى تذكره بانقضاء يوم ومجىء يوم ، بحلول ليل وانصرام ليل ..

وبين السياط العاتية والصيحات المجنونة يدور (معروف) فى دوامة كثيفة من الظلال والالوان تمور فى رأسه أمواج بحر غاضب وتستقر فى حلقة قطرات ألم مرير ، والعذاب يرفعه فوق الموج المتدافع ، والعذاب يطويه وسط الماء الكثيف ، والعذاب يوقظه من اغمائه الطويل ، والعذاب يعيده الى البحر المظلم الخبيث ..

وانقبضت عضلات جسده كلها فى تحفز واخذ العرق يغمر رقبته ووجهه وتمشت انبرودة الى قدميه ، ثم جاء صوت الصرير المخيف يحدثه فتح الباب الحديدى الثقيل الذى يعزله عن باقى المعذبين .. وحاول أن يسيطر على جسده المرتجف ولكن ارادته الواهنة ما كانت لتقوى على التحكم فى شىء .. لم يكن يرتجف خوفا ولا فرقا ، وانما هى أعضاء جسمه التى تتقلص فى تحفز أليم كلما صدر هذا الصرير من ورائه وكأنما يستعد لتتلقى جرعات جديدة من السياط التى لا ترحم .. ما كانت شفتاه تنفرجان عن صيحة ألم أو آهة استرحام ولكنه ما كان يملك أن يرد عضلات ظهره وساقيه ورقبته عن الارتجاف الصامت فى توقع السوط

يعيد تمزيق ما التأم ، ويفجر من جديد دما قانيا يحس بمسراه فوق جسده ممزوجا بعرقه ودوامات الالم الهائل والصيحات المحتبسة فى حلقه ..

وتردد وقع الاقدام على الارض الصلده ، ثم توقفت الاقدام .. تماما عند المكان الذى تتوقف عنده فى كل مرة ، واشتد تصلب عضلاته وتوفزها ، وحبس أنفاسه اللاهثة فى توقع الضربة الاولى وهو يضغط بأسنانه فى شدة فوق شفتيه يمنع الصرخة التى تميتها ارادته قبل أن تبلغ شفتيه .. وانتظر ..

ولكن شيئا لم يحدث ، ومرت لحظات ، ثم انطلقت ضحكة كريهة ساخرة واستأنفت الاقدام العديدة سيرها مقتربة منه .. وأمامه تماما وقفت الاقدام وسكن كل صوت ، وملأه احساس بأن عيونا خبيثة ترقبه من عل .. وأخذ جسده يرتجف فى عنف اذ راح توتره مرة واحدة ، وأحس بجروح كثيرة تنفتح وحدها وتصب دما ، وحبات عرق فوق جبهته وعند رقبته .. وهدأ ..

وفتح (معروف بن حجر) عينيه فى بطء شديد ، ثم عاد فأغلقهما مرة واحدة ، فأمام عينيه تماما كان أحد الجلادين يرفع شعلة متوهجة يقتحم نورها عينيه المتعبتين وينفذ منه خلال رأسه الى عقله فيشله ويعجزه .. وجاءه صوت أجش هادىء ، فيه لزوجة وفيه تشف :

ـ ابعد الشعلة عن عين المسكين فهى تكاد تحرق وجهه ..

ودارت الكلمات فى رأسه ثم استقرت ، هذه اللهجة الوقور الحانية ، تقطر العذاب الى قلبه قطرة قطرة ، وتجرعه الهوان نقطة نقطة ، أهان حتى يرثى له جلاده ؟ وهو ملقى مشدود لا يقوى على رفض الرثاء كما لا يقوى على دفع السياط .. وعاد الصوت الرتيب اللزج يطن فى أذنيه :

ـ ألم تأكل الطعام اليوم أيضا ؟ أتريد أيها الكافر أن تموت جوعا ؟ هل تظن ان هذا هو طريقك الى الخلاص ؟

انه الكاهن البدين صاحب البطن المترهل .. انه يذكره فى مسوحه السوداء الكئيبة ، ويذكر تلك التراتيل الغامضة التى كان يرددها فوق رأسه بعد أن تسلمه السياط الى اغمائه الكثيف المتقطع يحدوه دائما هذا الصوت اللزج يدور ويطن كنحلة حائرة موكلة بأن تمنع نومه وتؤرق عقله فلا يحظى بلحظة سلام .. وبين هذه التمتمات الرتيبة كان يهمس بين الحين والحين فى صوت كالفحيح .

ـ أين عرنوس أيها الكافر ، أين عرنوس أيها الخاطىء المارق ؟

لو طالت يده قفاه الغليظ ما تركه الا جثة هامدة لا حياة فيها ، لو ركله بقدمه ركلة واحدة لأدخل بطنه المترهل فى الحائط الذى يقف أمامه ، لو كان فوق فرسه وفى يده سوطه لما احتمل ضربة واحدة من يده الباطشة ، ضربة تشق وجهه وتمزق صدره وتبقر هذا البطن المتكور الرجراج .. لو .. وعاد الصوت يهمس كالفحيح .

ـ ما أصلب رأسك أيها المسلم .. وسوف يكون هذا الرأس وقودا طيبا للنار المقدسة التى تطهر أمثالك من الكافرين .. ان الرين حنا يريد أن يراك

لآخر مرة فاطلب منه المغفرة أيها التعس وأخبره أين عرنوس ؟..

وعاد صوت خطوات ثقيلة يتردد فوق الارض الصلبة ، وحين فتح (معروف) عينيه للمرة الثانية استطاع أن يلمح وسط دوائر النار التى تحف بعينيه ثلاثة وجوه كاملة تطل عليه وكأنما من ارتفاع شاهق .. وجه الرين حنا القاسى الطويل المعروق بعينيه القاسيتين الغاضبتين وفمه الرقيق المزموم ، ما أبعد هذا الوجه عن وجه مريم الحلو الصافى الرقيق ، كيف يكون مثل هذا والدا لمثلها .. ووجه الكاهن الاحمر المترهل بعينيه الزئبقتين ذات النظرات اللزجة المتشفية ، هذا الذى جعل همه أن يمزق روحه وأن يؤرق خياله .. ووجه الفارس كنيار العريض تبص منه معالم القوة وتلوح فى عينيه الصريحتين الصافيتين نظرات رثاء حقيقى صادق ، هذا رجل يتمنى أن يلقاه الانسان فى الميدان ، يختبر قوته ويمتحن مظاهر الشجاعة التى تلوح فى محياه ، ولكنه أسره فى لا ميدان حين دس له المخدر فى الطعام الذى قدمه له أول نزوله الجزيرة ومعه عرنوس ، وظل المخدر يسرى الى جسده وحين أفاق جرده من سيفه وهو يقول فى ابتسامة شامتة..

ـ أهذا أنت يا معروف بن حجر ، لقد كنت أعرف أنك ستجىء الى هنا بقدميك هاربا بابنك عرنوس ، ولكن عرنوس سيعود الى جده الرين حنا وستبقى أنت فى السجن باقى حياتك..

وحاول أن يقف فخذلته ساقاه ، وحاول أن يمد اليه يده يجلد به الارض فتهاوى ساعداه ، وحاول أن يفتح فمه ليسبه فلم تطاوعه شفتاه ، وجاء صوت كنيار والظلام يطبق على عقله وعينيه :

ـ كنت أود أن أهزمك فى الميدان ، ولكن ما أخبرونى به عنك لايدع لى مجالا للمقامرة ولو أنى ارثى لك ، كيف تكون سلطان الحصون وتؤخذ هكذا دون أن تملك عن نفسك دفاعا .. »

ثم راح فى غيبوبة عميقة لم يفق منها الا وهو مشدود هكذا تنوشه السياط وتئز فوقه تمتمات الكاهن .. ومن يومها وهو يحلم بأن يرد لكنيار الدين .

وشد نفسه فى عنف فاهتزت السلاسل وتدافعت محدثة صليلا خافتا واهنا ، بينما ارتفعت ضحكة ممقوتة وأحس بعظامه تكاد تتمزق من الالم ثم تهاوى من جديد ، وعيناه لا تغادران الوجوه الثلاثة تطل عليه من عل ، تضحك من ضعفه ، تسخر من عجزه تشمت من هوانه ..

وجاء صوت (الرين حنا) ملك روما حادا نافذا متعاليا :

ـ للمرة الاخيرة اسألك أين عرنوس ؟ ..

وهز رأسه فى عنف ، ماكان هو يعرف أين عرنوس ، فمنذ غيبه المخدر لم يره ، ولكن لعله هرب ، لعل صديقا عثر عليه فاحتفظ به ليوصله الى بر السلامة عند الملك الظاهر أو عند شبحه سلطان الحصون الجديد ، أو عند صديقه المصرى عثمان بن الحبلى .. فكلهم قد وعدوه بالمساعدة وأقسموا أن يعينوه على استرجاع ابنه عرنوس وزوجته مريم بنت الرين حنا بعد أن اختطفها جواسيس أبيها من وسط حصنه فى الشام .. لم تنفع الحراسة ولم ينفع

الحذر فقد كان (جوان) جاسوس الاعداء أكثر مكرا من رجاله وأشد دهاء .. وعاد صوت (الرين حنا) يطرق أذنيه، وهو يقول فى حدة شابها التردد والاضطراب :

ـ عرنوس لا ينبغى أن يصل الى روما ، ان مريم عذراء قديسة ، وشعبى يقدسها لانني وهبتها يوم ولادتها للكنيسة ، أنت دنستها وستدفع ثمن هذا ، ولكن هى ينبغى أن تنقذ ، ماذا يقول الناس لو علموا أن لها ابنا منك، أنت الكافر من بلاد المسلمين .. ؟

أحقا هو دنسها ، مريم ذات الوجه الملائكى الطاهر ، والنظرة الحلوة الصافية ، والقلب المتفتح على الايمان والحب .. لقد اسلمت وتزوجها .. وشهد زواجهما الملك الظاهر ، وعاشت القاهرة أياما عذبة جميلة تحتفل معه بأجمل أيام عمره ..

ولاح وجهها أمامه فرنت على شفتيه المتقلصتين ابتسامة واهنة اثارت الرين حنا الذى اندفع يصيح فى عنف وغضب .

ـ اتسخرمنى أيها المسيخ ،انك ستلقى الموت فى الصباح، أما عرنوس فسأجده نعم سأجده ولو قلبت عليه كل حجر فى هذه الجزيرة وفى كل الجزر المحيطة بها، بل لو فتشت عنه كل بلاد المسلمين .. وستظل مريم بمنأى عن انتقامك ..

كيف ينتقم وهو قد وهبها الحياة ، أعطاها السعادة والدفء والحنان ، بذل لها الحب .. أيفهم هذا الغليظ معنى الحب ؟ يترك زهرته تذوى فى عزلة دون أن يرويها .. شعبى يقدسها !. وماذا يقدس ، رمزا لا حياة فيه ،شيئا مضيعا لا قيمة له .. هو شدها الى الوجود وسقاها رحيق السعادة .. من الذى يريد لها الخير ، هذا الذى يصرخ خوفا من كلام الناس ، أم هو الذى جعل منها شيئا حيا كالناس .. وجاءا بولد (عرنوس) كأحلام الملائكة ضحكته اشراقة فجر ندى ، وبسمته تفتح النوار ، وصوته الرقيق ترتيل ناى فى عرس ليل مقمر .. لقد كانت تحيا لتلاعب عرنوس ، وتعيش لترقب عرنوس ينمو ، فى عينيها حنان يمنح الحياة ، وفى ضمتها له سعادة هى معنى الوجود .. ويريدها هذا الغليظ رمزا يقدسه شعبه ..

وكالفحيح جاء الصوت الغاضب :

ـ أجب .. أين عرنوس ..

وقال كنيار فى صوت هادىء متزن :

ـ حقا يا معروف أنت رجل ولوكنت مكانك ماكنت أطمع الا فى مثل صلابتك ، ولكنك لا تفهم الموقف تماما ان حياتك معلقة على كلمة منك ، لو قلتها أطلق الرين حنا سراحك لتعود الى بلادك أما ان لم تخبره عن مكان عرنوس فهذه ليلتك الاخيرة وستحرق غدا فى النار المقدسة كما يحرق كل الكافرين المارقين عن ديننا ..

وهز معروف رأسه فى عنف .. أيهدده بالحرق ان معناه الراحة من عذابه ، ان معناه الجنة ، وهل يتمنى الآن سوى الموت ؟ انه لا يريد الحياة الا لانقاذ عرنوس وهو هنا عاجز عن كل شىء فالموت له راحة من كل عذاب ..

وصاح الرين حنا وهو يجتعدبوجهه:

ـ أيها الأب المبجل هذا التعس ملك لك من الآن ولست أريد أن أسمع عنه شيئا .

واختفى وجه الرين حنا بينما بدت

فى وجه كينار نظرة اشفاق هائلة كأنما يخشى عليه من مصير أشد هولا من الموت واقترب برأسه من وجهه وهمس :

ـ آسف أيها الفارس وسيؤرقنى مصيرك ما حييت ..

ثم اختفى وجهه ليترك مكانه للوجه المترهل اللزج يقترب ويقترب ، وقال الصوت الرتيب الشامت فيه سخرية وفيه تشف :

ـ لك البشرى يا ولدى ، ان وسائلنا الدنيوية لم تفلح فى اعادتك الى الرشاد فلنترك روحك الضالة لعناية الاله العظيم فهو أقدر على هدايتها منا .. فلتنم الليلة فى سكون ومع الصباح تساق الى النار عسى أن يطهرك لهيبها من كفرك وعنادك ..

ثم ضحك ، وضحك حتى ابتلت عيناه الضيقتان واشتدت حمرة وجنتيه المكتنزتين ، وعاد صوته الخبيث يفح :

ـ أيها الجلاد ، فك قيوده واتركه الليلة فى سلام ..

ـ وأحس بجسد الجلاد الضخم وهو ينحنى فوقه ، وصكت أذنه أصوات احتكاك حلقات السلاسل الحديدية وهى تتهاوى الى الارض ، ووقع أقدام على الارض الصلبة ، والباب الحديدى الضخم يصر فى عنف ، والاقدام تبتعد وتبتعد ، وعضلاته تتقلص فى توفز .. ثم راح فى اغماءة طويلة ..

***

وحين فتح معروف عينيه كان الظلام الحالك يسود كل شىء حوله ، وعادت كل الأحداث الى ذهنه مرة واحدة فاختلطت وتشابكت حتى أحس برأسه يدور .. فزم شفتيه فى عنف ليعيد انهدوء الى نفسه ومضى يحاول أن يرتب الاحداث ليفهمها ، من المؤكد انهم قرروا موته غدا ، لقد أصبح وجوده بينهم بلا فائدة طالما أصبح من الواضح انه لن يتكلم ، بل لعله مصدر خطر يتهددهم اذ ما كان فرسان المسلمين ليتركوا مثله فى أيديهم ، وما كان انتقامهم من آسريه ليقف عند حد .. ومن المؤكد كذلك انهم قد فكوا قيوده .. وحاول أن يحرك ساعديه فى حذر فتحركتا ، وحاول أن يغير من وضع ساقيه فاستجابتا له وملأه احساس طاغ بأنه يحلم ، كلا ليس الامر حقيقة ، انه وهم ، انه حلم هل بدأ يفقد اتزانه ، هل تهاوت ارادته تحت وقع سياطهم اللعينة ، هل ضاع؟ وتحركت يده تلمس القش الخشن ، تلمس صدره ، تلمس وجهه ، تلمس يده الثانية .. كانت طليقة فعلا .. وأخرى .. انها تتحرك .. ورأسه ، انه يستطيع أن يرفعه ، أن يجلس ، أن يقف .. وأحس بالدنيا تدور وكان الجدران تتدافع لترتطم به ، وكان السقف ينهار ليسحقه ، وكان الارض ترتفع لتقذف به بعيدا بعيدا ، وعاد يتهاوى فى غيبوبة جديدة ..

ولكن اغماءة « معروف » لم تطل هذه المرة ، فسرعان ما فتح عينيه وهو يحس بعينين تحدقان فيه فى الظلام ، واعتدل فى صعوبة فى رقدته ، وأمامه تماما كانت العينان ، فى مستوى رأسه تلمعان وتضيئان فى الظلام ، وأحس بأطرافه تتيبس وبعضلاته تتحفز ، ووقف ذهنه عن التفكير .. ثم جاء مواء قطة كسلى تتمطى فى الظلام ، ومضت تقترب منه وهى تلوى جسدها وتفرده ثم اتجهت ناحية الطعام الى جوار رأسه ..

وابتسم لنفسه فى الظلام فى مرارة ، معروف تهز وجوده كله قطة تموء فى الظلام ، وكادت شفتاه تنفرجان عن ضحكة عريضة مسترخية ، ولكنها ماتت عند شفتيه ، القطة ؟ كيف دخلت الزنزانة، ووثب واقفا ، وعاد الدوار يملأ رأسه ، ولكنه تماسك ، فليس هذا وقت اغماء ولا استسلام لضعف الجسد المنهك ، ومن مكانه عند القيود المتهاوية الى الارض جعل يحدق فى الظلام بكل ما يملك من قوة ثم توقفت حركته تماما وأخذ قلبه يخفق فى عنف .. كان ثمة خيط من النور ينبعث من فرجة الباب .. واستقر كل شىء فى رأسه ، واحتلت ذهنه المشوش فكرة واحدة اهتزت لها نفسه، لقد أدار الجلاد مفتاح الباب قبل انطباق الضلفتين تماما ، فلم يستقر اللسان فى مكانه المعتاد .. وانبعثت من حلق معروف حشرجة أليمة ، أراد أن يجرى، أن يقفز ، أن يصرخ .. ولكن جسده كان متيبسا كأنما شد الى مكانه بسلاسل من حديد ، ولسانه كان جافا متضخما ، وقدمه ثقيلة كالحجر ، قلبه فقط يدوى ويدوى فى وجيب سريع لاهث .. وانساب جسده على الارض وقد غدا أضعف من أن يحتمل كل هذا الطنين الذى يملأ رأسه يمنعه عن التفكير والحركة ..

الطعام .. كانت الفكرة مباغتة وقوية، نعم لابد من الطعام لكى يستطيع أن يتمالك قواه وأزاح القطة الجاثمة فى عنف ، وانقض يأكل فى سرعة .. كم من الايام مضت عليه دون طعام ، انه لايدرى!! أسنانه لاتستجيب كأنما نسيت دورها ، عليه أن يدفعها لتطحن الطعام ، بل لابد أن يزدرده بسرعة ، حلقه جاف يكاد يطرد الطعام فى تقزز ، لابد ، لابد أن يأكل وأن يشرب وأن يستريح .. والقطة ترقبه فى خوف وقد تسمرت فى مكانها مقوسة الظهر لامعة العينين ..

وحين عاد ينظر من جديد الى الباب، كانت الفرجة أشد اتساعا ، وكان النور الذى يتراقص من خلالها أكثر توهجا .. وفى هدوء مضى يقترب فى حذر ، واستقرت يده المرتعشة بحافة الباب تدفعه شيئا فشيئا ، ولم يحدث شىء .. دفعة أخرى وازداد اتساع الفرجة .. وانسل جسده من الفرجة الضيقة خارجا من الزنزانة المخيفة التى كادت تأكل عمره .. وظل واقفا لحظات يتلقى لفحات ذبالة المصباح المترنح تحت هبات النسيم الخافت المشبع بعفونة القبر ، ولكن النسمات كانت تتغلغل فى رئتيه فتملأه بشعور مبهم هو مزيج من التحفز والراحة والقلق .. ودارت عيناه حوله فى سرعة ، وكان وحيدا .. لم يكن بالدهليز أحد ، لم تكن به حياة .. وتراءى له وجه مريم تبتسم ، من أجلها لابد أن يخرج ، من أجل أن يعيدها الى الحياة ، يخرجها من هذا الدير الرهيب الذى سجنها أبوها فيه تتلقى صلوات السذج ليعيدها الى أحضانه تتلقى قبلات قلبه الدافىء الحى .. وضغط معروف بأسنانه على شفتيه فى قوة ثم أخذ ينقل قدميه فى حذر وهو يتحسس طريقه فى الدهليز المظلم الذى تملأه ذبذبات المصباح بأشباح وخيالات متراقصة .. ورائحة العفن تتصاعد من كل مكان ، وأصوات مبهمة غريبة تصدر من حوله ، هو يلتصق بالجدار الصلد ويزحف ، ثم يزحف ، بطيئا يخشى أن ينم عنه وجيب قلبه ، محاذرا يخاف أن ينشق الظلام عن عدو مجهول ليس من

الناس ، وانما له ألف عين وألف ذراع وألف ناب ·· وهو يسير ··

وفجأة ارتطمت قدمه العارية بحجر صلد يعترض زحفه البطيء ، فاخذ جسده كله يرتعد والعرق البارد يسيل في شقوق قديمة خلفها وقع السوط على جلده ، وتبينت عيناه الغائمتان درجا صخريا عريضا يرتفع الى أعلى ·· وتردد لحظات ثم انحنى يتلمس الدرج بيده ، ورفع رأسه ، وعلى ذبذبات المصباح الخافتة لمح الدرج يرتفع ويرتفع الى أن يغيب في الظلام ·· ومد يديه الى الدرجة الاعلى ثم سحب جسده وراءها ومضى يزحف صاعدا الدرج ، وكل حركة من حركاته العنيفة تفتح جرحا من جراحه القديمة وينبثق الدم من جديد يلوث يديه وينساب لزجا فوق ساقيه، ولكنه يصعد ويصعد ·· وتهاوى ساعداه ، وتعثر وسقط ، واصطدم وجهه بالصخر الصلد ولكنه حبس آهته بكل ما تبقى لديه من ارادة وقوة ··

وحين مد يده اصطدمت بالهواء ، تنتظم من جديد عاد يرفع جسده في صعوبة وهو يمضي من جديد صاعدا درجة درجة ·· وكلما صعد درجة برزت من الظلام درجة جديدة والسلم ليس له آخر ويداه قد ابتلتا بالدماء ، وعيناه ملأهما العرق الذى ملأ جبهته ووجهه ·

وحين هدأ وجيب قلبه وعادت أنفاسه وعرف ان الدرج انتهى ، فمضى يجر جسده في تثاقل متشبثا بالجدار الصلب ، ورفع جسده خطوة خطوة الى أن وقف منتصبا وهو يجول بعينيه الغائمتين فيما أمامه ·· دهليز طويل تنيره أكثر من زبالة مرتعشة ·· وفجأة صك أذنيه صوت وقع أقدام فوق الارض الحجرية ، وخيل اليه ان دقات قلبه قد توقفت لحظات لتندفع من جديد في عنف قاس رهيب ·· وتلفت حوله كالفأر المذعور ، ولكن يكن هناك شيء يستره عن العيون ، لا شيء الا الجدران عارية رهيبة ، عالية مقيتة ·· ومضت لحظات ووقع الاقدام يقترب ويقترب، وأخذ يضغط بجسده في الجدار كأنما يريد أن يتلاشى فيه أن يصبح قطعة من صخره ·· وظهر صاحب الاقدام يدق الارض في ثقة وبطء وتثاقل ، يرتدى مسوح الرهبان ويطرق الى الارض ويمضى بطيئا بطيئا ، ويمر من أمامه تماما ، لو رفع رأسه لرآه ، ثم يسير ، ويسير ووقع خطواته يتلاشى في الظلام، وليس الا صوت قلب معروف يدق في عنف وقسوة ··

ولو معه سيفه ، لو ركب فرسه ، لو استرد قوته ، لو لامست يده قوسه وسهامه والرمح الطويل ·· لو غمرته شمس الصحراء ولفحه هواؤها النقى ·· لو ··

واستجمع قواه ومضى يزحف بسرعة ملتصقا بالجدار وهو يحس بملمس الصخر يمزق جسده المهترىء وبدوامة عاصفة تجول في ذهنه المحموم ، ثم توقف فالدهليز ينحنى ، والجدار الذى يلتصق به ينحنى مع الدهليز ·· ربما قاده الى الحرية ، وربما سقط بين أيدى أعدائه ·· وأمامه بدا وجه مريم يبتسم

فى براءة ، وكانت شفتاها تهمسان ، تعال ، تعال ·· واندفع ينعرج مع انحناءة الدهليز ثم وقف قلبه وتسمر مكانه وماتت أنفاسه وقد مادت به الارض واضطربت أمامه الرؤية ·· على قيد خطوات قليلة وقف راهبان يتحدثان باهتمام واستغراق ·· وتحول أحدهما من مكانه فوقعت عيناه على معروف فى وقفته المتصلبة اليائسة ، وتقلصت عضلات معروف واستعد للوثوب ، لو اتجه هذا الراهب نحوه لانقض عليه وأنشب يديه فى عنقه وليمت مدافعا عن حريته ، عن أمله ·· وفى بطء حول الراهب وجهه ومضى يستأنف حديثه مع صاحبه ، ثم استدار الراهبان وأخذا يسيران فى اتجاهه مباشرة ، واشتد توفز معروف وتقبضت راحتاه فى عنف، فما زالت عينا الراهب تجولان حوله فى شرود ·· ولكن ·· انهما يسيران فى بطء ·· أمامه تماما ، لو مد يده للمس رداء أقربهما اليه ··· ويسيران ·· وحديثهما بطىء متقطع · ثم يمضيان يطويهما الظلام ، ووقع أقدامهما يدق رأس معروف فى عنف وقسوة ··

وفجأة اندفع معروف يجرى بكل قوته وقد غشيت عينيه سحب كثيفة من ضباب ، واصطدمت قدماه بالحجارة فسقط وانفتح جرح جديد وصاح جسده بالألم ، عند كتفه الأيسر ، حريق من لهب، وهب واقفا ومضى يجرى من جديد، السيف فى يده مخضب والاعداء تجرى أمامه وصيحات رجاله لا تهدأ وفرسه يلحق كل الخيول ورمحه أطول من كل الرماح ·· وسقط يعانق الصخر الصلد الرهيب وانفتح جرح عند حاجبه وتدفق الدم والظلام يطبق عليه ، لا يجب ألا يستسلم الآن ، ليقف ، فى هذا الحدر هلاكه ، فى هذه الرقدة نهايته ليقف

يشد قامته ، يمسك نفسه ، ويجرى ويجرى ، فى سباق مع الظلام، والاشباح تتراقص فوق الجدران وذبالات تحتضر وأصوات غريبة تطارده كأنها تجرى وراءه ، تريد أن تمسك به ، أن تمنعه، أن تحول بينه وبين الطريق .. ثم هوى .. ارتفعت الارض نحوه وصفعته ، واختنق صدره بأنفاسه اللاهثة وزحف اليأس المرير الى قلبه ثم سكن كل شىء .. لا فائدة .. لا أمل .. الظلام يسلمه الى الظلام ، وسرداب يقوده الى سرداب، وكأنما يدور ويدور .. وخبط الارض بيديه الداميتين ولم يحس ألما . لا ألم، لا شىء ..

وأحس بتيار بارد منعش يهب على وجهه ، وحين التفت الى يساره انبعثت من فمه صيحة لم يستطع أن يمنعها ، فعلى قيد خطوات منه كان باب القصر الكبير مفتوحا ، تتسلل منه أشعة خافتة لصباح وليد .. وأخذت هبات رطبة من هواء بارد تبعد رائحة العفن التى ملأت صدره .. وعادت الدماء تمور فى عروقه، وانتظم قلبه يردد خفق الحياة فى لحن طروب ، وأخذ يزحف ويزحف ، مقتربا من الباب المنفرج وقد نسى كل شىء ، كل الألم ، كل اليأس ، ونفذ جسده من فرجة الباب .. الهواء النقى يغمر جسده ، يرطب جروحه .. هواء لاتحده جدران ، وعيناه تبصران الأفق ونور شاحب يلون كل ما حوله ، أشجار انتشرت هنا وهناك ، وجبال تتشامخ فى الفضاء من بعيد ، ومراع شاسعة تمتد فى كل اتجاه ..

هذه هى الدنيا .. انها الآن ملكه ، عاد اليها .. كانت بعيدة عنه وكأنما الى الأبد ، ثم أفاق فاذا هى تحت قدميه تناديه ليمتلكها ، ليمتلك كل شىء فيها، سيعيد اليها مريم ، ويجدان عرنوس ويضمهما من جديد بيت سعيد لا تفرقه أحقاد ملك ولا أطماع توسع ، ولا تراتيل كهنة متعصبين .. يبدءان معا ، حياة جديدة بلا قيود ، بلا حدود ..

واستيقظت أذناه تلتقطان أدق الاصوات وأخفتها، خفق أجنحة العصافير، تفتح أكمام الزهر .. وامتلأت رئتاه بعبير مختلط ، رائحة كل شىء ، رائحة الحياة ..

وفجأة أحس بذراعين قويين يتسللان من ورائه ، وهبط كل شىء فى أعماقه ثقيلا ثقيلا كهذا الجبل .. والتفت وراءه ليرى وجه كنيار يبتسم فى اشفاق وهو يطوقه بساعدين كالحديد .

ودارت بمعروف حلقات مرعبة صاخبة اختلطت فيها كل الصور ، قلعته الشامخة حصانه السريع سيفه يرتفع ويهوى ، مريم تضحك ، وعرنوس يتطلع اليه بعينيه البريئتين ، والارض تصعد وتصعد ، وشىء فى جوفه يتحرك ، ولسانه ثقيل خشن فى فمه .. ومن بعيد .. من أغوار سحيقة .. من عالم لا يراه سمع الرين حنا يقول فى تشف خبيث :

ـ أحسبك الآن مستعدا لتخبرنا .. أين عرنوس ؟